مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 149-157

تأثير العامية على الفصحى في الصحافة الجزائرية المسموعة: إذاعة غليزان أنموذجا.

Radio Relizane as a model:The influence of vernacular on classical language in the Algerian press

خليفي سعيد
المركز الجامعي أحمد زبانة بغليزان، الجزائر
said.khelifi@cu-relizane.dz

تاريخ الاستلام: 2019/09/01 تاريخ القبول: 2019/10/29 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص البحث:

يرى كثير من الصحفيين ورجال الأعلام أن تفشي العامية وتراجع اللغة الفصحى في الصحافة المسموعة على وجه الخصوص، إنما يعود سببه إلى ضعف مستوى التلقي في المجتمع، ومراعاة الطبقات الوسطى والأمية فيه، بغض النظر عن اللغة المستعملة، مادامت تؤدي الغرض وهو تحقيق التواصل...فما مدى تأثير العامية على اللغة العربية الفصحى وضعف أدائها؟! وهل يُعدّ ضعف مستوى التلقي للخطاب الفصيح مبرّرا للاستخدام المفرط للعامية؟! .وما هو واقع اللغة العربية في وسائل الإعلام المسموعة في الجزائر، وأخص بالذكر الإذاعة المحلية لغليزان..

الكلمات المفتاحية: العامية، الفصحى، التأثير، اللهجة، التواصل، الصحافة المكتوبة...

ABSTRACT:

Many journalists and media makers believe that the prevalence of colloquialism and the decline of classical language in the audio press in particular is due to the low level of reception in society, and the consideration of the middle classes and illiteracy in it, regardless of language used, as long as it performs the purpose of achieving communication... Therfore, how much do slang affect the classical Arabic language and its poor performance? Is the poor level of receiving a rhetoric justified by excessive use of slang? In this paper, I have tried, through these and other questions, to highlight the reality of the Arabic language in the audio media in Algeria, particularly the local radio station of Relizane.

Keywords :Slang,classical,language,influence,dialect,communication,

إن الواقع اللغوي الجزائري هو مزيج من اللغات المتعددة التي تعايشت مع بعضها في وفاق ووئام، ولكن الأمر اللافت هو التأثير السلبي على نقاء اللغة العربية وصفائها من تأثير هذه اللغات من جهة، ومن تأثير العامية التي أضحت منافسا حقيقيا للغة الفصحى من جهة ثانية، مما جعل المهتمين والمختصين يدركون خطورة الأمر، بل إن كثيرا من الجهود ما انفكت تُبذل من أجل النهوض باللغة العربية وتطويرها، ومن أهمها جهود المجلس الجزائري الأعلى للغة العربية الذي ما فتئ يدافع عن هذه اللغة، ويدعو إلى تفعيلها والمحافظة عليها، بفضل ما يعقده من ندوات ومؤتمرات دورية، وما يقدمه من مقترحات وتوصيات، من خلال آراء العلماء والمختصين من

داخل الجزائر وخارجها، في مجال اللغة العربية وفروعها وحقل الدراسات اللسانية، من أجل تمهيد الطريق لتعميم استخدامها في مجالات البحث العلـــمي والتكنولوجي، متجاوزا بذلك كل المعوّقات التي ظل الكثيرون يبنون على أساسها نظرتهم الخاطئة بضعف اللغة العربية وعدم قدرتها النهوض بالعلم والمعرفة..

ومما هو معروف أن التفاهم والتواصل بين بني البشر أمر فطري، رافق الإنسان منذ أن أوجده الله على هذه الأرض، نظرا لطبيعته الاجتماعية، فهو مدني بطبعه كما يقول بن خلدون، ومن أجل ذلك ابتكر هذا النظام الذي يُعرف باللغة بعد أن وهبه الله ملكة التكلم التي لم يهبها لغيره من المخلوقات، فتواضَعَ عليها الناس، وتوارثوها جيلا بعد جيل، فخضعت هي الأخرى لنظام التطور " والتغير حاصل في اللغة وغيرها من الظواهر الطبيعية خضوعا لقوانين الحركة والحاجة للتجديد الذي يتماشى مع مستجدات الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفرد وهو ما يساير الباحث اللغوي رغبة منه في وصف الحركة اللغوية، فنشأت قضايا لغوية على شكل ثنائيات، الصواب والخطأ، الثابت والمتحرك، الأصالة والتجديد، التراث والمعاصرة، المعيارية والوصفية..."[1]، ولما كان للغة هذا البعد الاجتماعي والنفسي والتاريخي، باعتبارها حلقة وصل تتوارثها الأجيال المنتمية إلى المجتمع والأمة الواحدة، بات الاهتمام بها، والعناية بمختلف تشكُّلاتها واستعمالاتها أمرا أكيدا، ولعل تعريف ابن جني للغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]، هو التعريف الذي لا يخرج عن هذا السياق، بل يكاد يكون تعريفا شاملاً ودقيقاً، لأنه عرّف اللغة حينما ذكر أنها مجرد أصوات من جهة، وبيّن وظائفها وخصائصها حينما تحدث عن المهام المنوطة بها والمحقِّقة لمزية التعبير عن الأغراض من جهة أخرى، وهو المعنى نفسه الذي أكدته الدراسات اللسانية الحديثة، وذهب إليه العالم اللساني الغربي المعاصر فرديناند دي سوسير F. de Saussure في العصر الحديث متحدثا عن اللغة قائلا "أنها ليست فردية تتعلق بعوامل النطق وأصوات الكلام ولكنها ظاهرة سيكولوجية اجتماعية، ثقافية مكتسبة لاصقة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق اختيار معاني مقررة في الذهن، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل"[3]، ولذلك فاللغة ليست مجرد أداة للفكر أو تعبير عن العواطف فحسب، وإنما هي جزء من كياننا الاجتماعي ، ولون من ألوان النشاط الإنساني في المجتمع، فهي عملية فيزيائية اجتماعية، ويثبت هذا أن اللغة رابط مهم بين أفراد المجتمع إذ تعبر عن حاجته، وتوحد أهدافه..

وقد كان العرب القدامى يتكلمون اللغة بكل فصاحة وطلاقة دونما حاجة لمعرفة قواعد النّحو والصرف أو البلاغة أو العروض أو غيرها ...فغلبت عليهم السليقية، أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم بها على سليقته وسجيته من غير التزام أو تعهد إعراب، ولا تكلف في تجنب لحن أو خطأ، وفي هذا السياق قال الشاعر العربي قديما: ولَسْتُ بنَحْوِي يَلُوكُ لسانَه ** ولكِن سَلِيقِيٌّ أَقُولُ فأعرب..

وقد ظل العرب على ذلك إلى أن جاء القرآن الكريم، فتوسعت رقعة الأمة الناطقة باللغة العربية نتيجة الفتوحات والامتزاج بألسنة الأمم الأخرى، وبدأ اللحن يتسرب في ثنايا هذه اللغة، مما أدى إلى فسادها وذهاب بريقها، بعدما كانت لسانا واحدا ينطق بلغة القرآن، وسرعان ما عادت الأمور إلى نصابها بعدما ظهرت مختلف العلوم اللغوية والتي أسست لتلك الضوابط والقواعد التي تحكم المتكلم وتحافظ على اللغة، فأصبحت البلاد

العربية ذات ألسنة مختلفة، لكل بلد لهجة، خاصة البلاد المتاخمة للبيئة العربية، كما هو شأنها باللغة الفارسية التي امتزجت بها في كثير من الأحيان، مما أثار إعجاب كثير من شعراء الفرس وعلمائه ببلاغة اللغة العربية وتميزها بحمل المعاني بشكل مثير للاهتمام "استمر استعمال المفردات العربية في ازدياد خلال القرنين السادس والسابع للهجرة وما بعد ذلك ومعلوم أن اللغة تحتمل معها أساليب البيان والمعاني والفنون الشعرية"[4]، وقد يكون هذا الاختلاف كليا، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى الظروف التي مرّ بها كل مجتمع من هذه المجتمعات، وقد اختلفت وتباينت، نتيجة ظهور ما يعرف باللهجات التي هي في الأصل لغات أيضا، اعتبارا من الوظيفة التواصلية التي تضطلع بها مثل اللغة..

ولذلك فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة العام بالخاص، من منطلق أن أي لغة تنضوي تحتها مجموعة من اللهجات، ولكل منها ما يختص بها ويميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات، ولعل "السبب الرئيس في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات يرجع إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة وواسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس"[5]، ولكنها لا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها لأنها تلقائية تغلب عليها ميزة النطق دون الكتابة، ومتغيرة تبعا لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم، وتتصل نشأتها بتاريخ اللغة العربية، ويعتبر وجود هذه الظاهرة بجانب اللغة الفصحى ظاهرة طبيعية في كل اللغات ، ولكن الملاحظ أن الفجوة أخذت تزداد اتساعا بين الفصحى والعامية، كأن لا علاقة بينهما، لأسباب كثيرة منها الدعوة الشديدة للتفريق بين العامية والفصحى، والأكيد أن الفصل بينهما بهذا الشكل أمر مجحف في حق العامية والفصحى على حد سواء، لأنهما ظلتا متلازمتين منذ غابر العصور وتوالي الأمم وتعاقب الأجيال..

وانطلاقا من موقع الجزائر في قلب المغرب العربي الكبير، الذي هو جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الكبرى، التي تتخذ من اللغة العربية لسانها الناطق، فإن اللغة العربية فيها تمثل"ثقافة وحضارة، وليست عرقا أو سلالة تقبّلها الجزائريون طوعا مع الإسلام، وتفانوا في خدمتها لسانا وعلوما وآداباً منذ السنين وفي كلّ مناطق الجزائر بلا استثناء، وبالتالي ليس في الجزائر الآن ولا في الماضي طوائف وأعراق متقابلة، هناك تعدد وخصوصيات أقل بكثير مما في غيرها من البلدان يجمع ذلك التنوع وطن واحد يمكن أن يجتهد مواطنوه في حمايته، وخدمته في أي موقع يكونون فيه وفي كل الظروف وذلك من أهم حقوق المواطنة وواجباتها"[6]، وهذا التنوع نتج عنه ظهور مجموعة من اللّهجات واللّغات العامية ذات الأصل الممتد إلى اللّغة العربية ، "وندرك، بإمعان النظر، أن اللهجات الجزائرية موجودة كلّها في اللهجات العربية القديمة، وأن ما نظنه غير عربي معظمه عريق في الفصحى. إنّما دخله تغيير ظاهر أو خفي لا يدركه السامع إلا بإعمال الفكر والرّجوع المستمر إلى المعاجم العربيّة وغير العربية وإلى الدّراسات المتخصّصة. وقد تتغيّر دلالة اللفظ الفصيح بالتوسع والمجاز والكناية والتهكم وغير ذلك من أساليب البلاغة، تتغير ضرورة لأداء معنى جديد يتطلبه العصر أو الحاجة أو للجهل بأصلها في اللغة الفصيحة"[7]، وللإشارة فإن هذا الأمر خاص بالعامية أو اللهجات بشكل عام من منظار بعض المهتمين ممن لم يطّلعوا بشكل واسع وشامل ودقيق على الدراسات التاريخية المتعلقة بتطور اللغة العربية ونشأتها بداية من العصر الجاهلي مرورا بعصر الإسلام، وما حمله القرآن من تثبيت لهذه اللغة التي نزل بها وبعدد أحرفها، والتي تعد" خليطا من لهجات قبلية عربية، وإذ لم يكن لذلك التعدد اللهجاتي المعجون في لغة

مشتركة عامة عائق كبير بالنسبة لعربية الآداب الجاهلية وما وصلنا من تراث عام بها، فإن القرآن عمل على كشف ذلك العائق، وبين أن العربية التي نزل بها لا تخلو من فوارق لهجية شملت معظم القبائل العربية بنسب متفاوتة حيث كان للهجة حظ أوفر من لهجة أخرى"[8]..

وقد ظل التعايش والاستمرار بين اللغة العربية ولهجاتها المختلفة يسود الأمة الجزائرية منذ الفتح الإسلامي إلى فترة الحملات الاسبانية، وانتهاء بالاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1830 الذي أوقف تعليم اللغة العربية نهائيا، فلجأ الجزائريون للتعبير عن وجدانهم ومقاومتهم للمحتل إلى العامية والشعر الملحون، التي كانت راقية وظلت غير مشوهة قريبة جدا من الفصحى، ولم يتسرب لها التشويه إلا في عهد الاستقلال، بحيث صارت لجهة مِسخا، خليطا من الكلمات العربية والكلمات الفرنسية، سماها اللوبي الفرنكفوني المتحكم في الدولة الجزائرية [العربية الجزائرية] وطالب بترسيمها بدل الفصحى"[9]، فشهدت اللغة العربية تراجعا ملحوظا، مما أدى بها إلى الدخول في دوامة مغلقة يصعب الخروج منها، جعلها تواجه ازدواجية خطيرة، حيث أصبحت تزاحمها اللّغات الأجنبية كالفرنسية والإسبانية والإنجليزية وغيرها ... فمست اللهجات السائدة بشكل مباشر..

وإذا كانت اللّغة كما هو معروف مرآة عاكسة لشخصية الفرد في أي بلد، فإننا نجد أن الجزائري قد تشبث بلغته وعاملها بحنان كما تعامل الأم طفلها، حتى صارت جزءا من كيانه لا تنفصل عن شخصيته الوطنية الجزائرية المغاربية وانتمائه العربي الإسلامي، وأصبحت لتغلغلها في النفوس ولمكانتها هي الوسيلة والأداة في التعامل بكل المجالات الإدارية والعسكرية، خلال فترة الاحتلال تحديدا، فكانت جميع الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية تصاغ بالعربية، ومن أمثلة ذلك، الوثائق والرسائل المتبادلة بين الأمير عبد القادر والعسكريين الفرنسيين، وهي الآن محفوظة بالمكتبة الوطنية، لتثبت أن العربية ارتقت فوق الفرنسية لغة المستعمر، وحتى فوق اللّهجات السائدة وقتئذ، مما يؤكد أن اللغة العربية الفصحى ظلت في الجزائر وعبر كل العصور لغة الدولة والدّين والوطن، "والاستعمار الفرنسي الذي تمطى بصلبه، وأردف أعجازا، وناء بكلكله على الشعب الجزائري زهاء مائة وثلاثين عاماً لم يستطع أن يمحو كلمة واحدة من لغة الشعب، فغادر هذا البلد خائبا، والعربية أقوى مما وجدها"[10]، ومرد ذلك فيما يراه المختصين والمهتمين بالشأن اللغوي في الجزائر، هو تمسك الجزائريين بلغتهم وتفانيهم في محبتها والدفاع عنها..

ولكن المشكلة الحقيقية والمحنة الكبرى للغة العربية في الجزائر هي تلك التي شهدتها بعد الاستقلال، فبدل أن تحظى بالعناية والاهتمام بواسطة الاستخدام والتفعيل، ألفيناها تتأخر وتتقدم مكانها الفرنسية في مختلف الجهات الحكومية والمؤسسات العمومية، مما أدى بها إلى التراجع أكثر مما كانت عليه حتى خلال الفترة الاستعمارية، وقد تزامن هذا الاستخدام الواسع للغة الأجنبية مجموعة من القرارات الحاسمة أهمها قرار التعريب ومناهج التعليم التي اتخذت من اللغة العربية هدفا مقصودا لذاته فبدأت الجزائر تحقق نهضة حقيقية في هذا المجال..

وتعد اللغة العربية مقوماً أساسياً من مقومات الشعب الجزائري شأنه شأن كل الشعوب العربية، كما أنها وسيلة لتبادل المنافع وسير الأمور وهي لغة الجزائري في جميع مجالاته اليومية، بل هي الشعار الذي رفعه عميد المصلحين الجزائريين، ورائد النهضة الفكرية الجزائرية الحديثة، الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس،

رحمه الله، رغم أنه ينحدر من سلالة الصنهاجيين قوله: "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، وظل هذا الشعار مرفوعا خلال فترة الاستعمار الفرنسي الغاشم، وحملته الأجيال بعد الاستقلال، وسيظل كذلك بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن لا بد لهذا الشعار من تجسيد على أرض الواقع "لذلك نجد كتابات الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس والشيخ الإبراهيمي ومبارك الميلي وغيرهم تعنى بشرح الاتجاه الفكري والتربوي الذي يجب أن يتبناه التعليم، ويستفيد منه تعليم العربية، لأن النظرة إلى اللّغة في مفهوم البشير الإبراهيمي مثلاً، يجب أن تتغير، بحيث تتطابق مع حقيقة اللغة العربية والوظائف الحية التي يجب أن تضطلع بها، شأنها شأن كل لغة حية في وطنها"[11]، واللغة العربية يجب أن تكون أكثر مرونة وقابلية للتماشي مع متطلبات العصر، ولو على حساب بعض الخصوصيات التي يرى الكثير ممن ينصبون أنفسهم حماة لهذه اللغة ومدافعين عنها، أنها من المحظورات التي لا نقاش فيها، وهذا لا يعني البتة "التخلص من التراث أو القضاء على ملامح اللغة وخصائصها وإنما يعني أن نوفق بين سمات هذه اللغة واستعمالاتها المعاصرة والمستقبلية وفق قواعد ومناهج معروفة ومتفق عليها ويمكن القياس عليها"[12]، وإذا كانت اللغة ابنة المجتمع تتطور معه إذا تطور، وتتأخر إذا تأخر، فإن الذي يجب مراعاته والحرص عليه، هو أخذ المبادرة سريعا من أجل وضع خطة عملية مدروسة ومتكاملة تنهض بعملية التعريب على نطاق واسع، وبشكل علمي ممنهج، تمس كل الجهات والمؤسسات، خاصة التربوية والإعلامية مكتوبة كانت أو مسموعة أو مرئية و"قد يفرض هذا الوضع على الهيئات التدريسية في الجامعات أن تضاعف جهودها في مجال التأليف وأن تتولى مؤسسات علمية وثقافية نشر المواد المؤلفة بأشكال النشر السائدة، ويتطلب هذا الأمر تدريب كفاءات علمية ولغوية على الترجمة والتعريب وتطوير التعريب الآلي في اللغة العربية كما يتطلب أن توفر المؤسسات اللغوية والعلمية والتعليمية والتكنولوجية كل الوسائل الكفيلة بإنجاح هذه الجهود"[13]، وبالنظر إلى ما هو موجود من كل هذه المبادرات، نرى أنه لابد من إعادة الثقة في الطاقات المعربة في الجزائر، نظرا للحاجة الملحة لذلك استجابة لدواع كثيرة تربوية ونفسية واجتماعية وحضارية تتعلق بكيان الأمة وجوهر وجودها..

وواقعنا اللغوي الجزائري واقع متعدد اللّغات، فإلى جانب اللغة العربية الفصيحة نجد اللغات الأمازيغية، وهي كثيرة منها القبائلية، الشاوية، التارقية، المزابية، الزناتية...مما يؤكد أن العربية الفصحى لم تبق على حالها، وإنّما جاورتها لغات أخرى، ذات العناصر المشتركة بينها وبين الفصحى في جميع أنحاء الجزائر الشاسعة، ولكنها قريبة منها إلى حد كبير من حيث النظام اللغوي المتعلق بمختلف الأبنية النحوية والصرفية والاشتقاقية، دون أن يكون له تأثير سلبي مباشر على جوهر اللغة العربية ونظامها الذي تقوم عليه... ،ولذلك فإننا نجد اختلافا من منطقة إلى أخرى، غير أن هذا الاختلاف لا يؤثر كثيرا في عملية التواصل، وهذا أمر طبيعي حاصل في كل دول العالم ومناطقه المختلفة، بحيث نجد في القطر الواحد هذا التعدد، الذي غالبا ما ينشأ عن عوامل الوراثية والطبيعية كالجوار المسبب لظاهرة التأثير والتأثر ، ومن هذا المنطلق فإن اللغة "تختلف من جهة إلى جهة، بل أحيانا تختلف من قرية إلى قرية مجاورة لها وهذه اللهجات تخضع لعوامل لغوية كثيرة، منها ما ينشأ عن الوراثة والطبيعة، ومنها ما ينشأ عن البيئة والجوار، ومنها ما ينشأ عن الاختلاف الناشئ عن اختلاف الجنس واللغة والطبيعة الفيزيولوجية نفسها..."[14]، ومن المعلوم أن العامية هي اللّغة التي يكتسبها المرء عندما يبدأ الكلام، فهي لغة الحياة اليومية بالنسبة لكل فئات المجتمع على اختلاف مستوياتهم ودرجاتهم

العلمية ومكانتهم الاجتماعية، وبذلك تكون هي اللّغة الأم بشكل أو بآخر، لأنها لغة كل الجزائريين وفي جميع أنحائها مع بعض الاختلافات التي تحدثنا عنها، ومن هذا المنطلق، فإننا لو أردنا أن نتعرف على عدد الناطقين بها، لاكتفينا بمعرفة التعداد الإجمالي للشعب الجزائري، وهو زهاء الأربعين مليونا أو يزيدون..

ومن أبرز مظاهر الاختلاف في التشكيلة الأساسية للعامية الجزائرية نسجلها من خلال فئتين اجتماعيتين اثنتين، الأولى لغتها الأم الفرنسية، والتي اكتسبتها بفعل اقترابها الشديد من بعض دوائر المستعمر الفرنسي سواء من حيث السكن أو التعامل معه، وتتمثل أساسا في الفئة التي ترعرعت مندمجة مع الاستعمار الفرنسي، أو كانت قريبة منه، أو من مؤسساته المختلفة، فتشبعت بالثقافة الفرنسية، واكتسبت هذه اللغة وأتقنتها، بل تكلمت بها فيما بعد وتوارثها الأبناء عن آبائهم، وبعد الاستقلال امتزجت بالعربية وأصبحت عامية، تشكل فيها الفرنسية قسطا كبيرا.. أما الثانية فيمثلها أغلب فئات الشعب الأخرى بما فيهم الأمازيغ، وهم السكان الأصليون للجزائر، الذين أحبوا اللغة العربية واعتنقوها ودافعوا عنها، بل إنّ الكثيرين منهم، وخاصة فئة المثقفين عدّوها لغتهم التي يتعبدون بها وينجزون بواسطتها مختلف كتاباتهم وإبداعاتهم، وهكذا انتشرت واتسع نطاقها في الجزائر وفي المغرب العربي الكبير بداية من الفتح الإسلامي والمراحل التي أعقبت ذلك، لأنها لغة الإسلام الذي آمنوا به واعتنقوه بكل حرية، ولأنها ليست غريبة عن لغتهم الأمازيغية إذ أنها تتقاطع معها وتلتقي في كثير من الخصائص والمميزات، وقد ظل الأمازيغ متفانين في خدمة اللغة العربية وتطويرها، إيمانا منهم بأنها لغتهم ولا يوجد لهم بديل عنها، حتى جاء بنو هلال بعدئذ فامتزجوا بإخوانهم الأمازيغ، وكوَّنوا معهم المجتمع العربي المسلم، بل وانتشرت لهجات ذات أصل عربي تُنطق فيها القاف كافا ونجد ذلك في جيجل والغزوات الجزائريتين، وطولكرم في فلسطين، ومثل نُطق الغين قافا في بعض مناطق الهضاب العليا الجزائرية كالأغواط والجلفة والبيّض، وكثير من دول الخليج العربي، وغيرها من اللهجات المنحدرة من القبائل العربية التي رافقت الفتح الإسلامي..[15]

وعاميتنا الجزائرية، كغيرها من العاميات، تختلف من منطقة إلى أخرى، حيث نجد مثلا في منطقة الشرق الجزائري مدناً متعددة متشابهة لهجتُها في أهمّ الخصائص، ومختلفة في بعضها الآخر، نذكر منها لهجة كلّ من سوق أهراس وتبسة وعنّابة والطارف، الواقعة في أقصى الشرق الجزائري، وبالذات في الحدود التونسية، إذ هي أقرب لِلَهجة التونسيين منها إلى لهجة الجزائريين، والتي تأثرت في لغتها بالجارة تونس، فأصبحت ممزوجة بين الجزائرية والتونسية، وكذا الشأن بالنسبة لمدينة مغنية وبشار والعين الصفراء وبني ونيف متاخمة للحدود المغربية، التي خضعت للأثر نفسه، حيث نجد سكان هذه المناطق يتكلمون لهجة قريبة من لهجة إخواننا المغاربة القاطنين بالمحاذاة من الشريط الحدودي الجزائري، ومن هنا يمكن القول بأن اللغة أيضا تخضع لعامل التأثير والتأثر مثل الكائن الحي، فتتأثر بغيرها من اللغات المجاورة فتأخذ منها وتمنحها تبعا للظروف والأحوال..

والملاحظ إن اللغة العامية الجزائرية السائدة تظل أكثر انتشارا في ربوع الجزائر كلها، اعتبارا من عدد المتكلمين بها، كما ذكرنا في ثنايا هذا البحث سلفا، فهي لغة أغلب البيوت الجزائرية وأحيائها وشوارعها، وهي لغة المصنع، وحتى المدرسة في بعض الأحيان، تأثرا بالمحيط الخارجي سواء بالنسبة للمتعلم، أو حتى المعلم،

رغم أنه ملزم قانونيا بالاستعانة باللغة العربية في العملية التعليمية دون سواها، إلا أنه كثيرا ما يستعمل العامية في قسمه من حين لآخر، لأسباب عديدة، أهمها حرصه الشديد على توضيح كثير من الأمور والمسائل التي قد يصعب على الطفل فهمها واستيعابها باللغة الفصحى، وخاصة في سنواته التعليمية الأولى، وذلك من أجل الإفهام وتقريب المعنى وتبسيطه لهذه الفئة من المجتمع، وهي فئة الأطفال الذين تعوّدوا على العامية منذ بداية نطقهم وتكلمهم، فيتم الانتقال إلى استخدام العربية الفصحى وتلقينها لهم تدريجيا، وبطريقة سلسة تراعي هذه الأحوال، وإن كانت العامية هنا ليست بديلاً للغة العربية ولا ينبغي لها ذلك، إلا أنها يمكن أن تكون وسيلة مساعدة، وأداة تعليمية ناجعة في المراحل الأولى من التعليم، وهذا من أجل إيصال الفكرة للتلميذ الذي دأب على النطق بالعامية والتعامل بها منذ نعومة أظافره..

وفي وسائل الإعلام المسموعة في الجزائر، وأخص بالذكر الإذاعة المحلية لغليزان، من خلال هدفين اثنين تحاول المحافظة عليهما وتحقيقهما في آن واحد وهما إيصال الأفكار والآراء للمتلقي باللغة التي يفهمها، وفي الوقت ذاته تحاول المحافظة على اللغة العربية وترقيتها..

والمتتبع لبرامج الإذاعة المحلية بغليزان في ضوء برنامج "قلوبنا معكم"، وهي حصة اجتماعية ذات طابع تفاعلي، وبرنامج "زينة الحياة" الذي يُعنى بفئة الأطفال الصغار، يلاحظ أن استعمال العامية في الحصتين، يمثل نسبة كبيرة جدا، باعتبار الفئتين المستهدفتين لا تفقهان إلا العامية...ففي البرنامج الأول نجد أن استعمال العامية مثّل نسبة ستين بالمائة مقارنة بالفصحى التي لم يتعد استعمالها أربعين بالمائة، فباعتبار الحصة تبث بشكل مباشر على الهواء، فإن أغلب المتصلين يتحدثون بالعامية، إلا أن الملاحظ أن المنشط نجده يحرص بعض الشيء، على أن يتحدث بالفصحى، ويحاول من حين لآخر دفع المتصلين لأن يتحدثوا بها هم أيضا، ولكن دون جدوى، وتبقى المحادثة بينهما باللهجة العامية، التي تخضع لعوامل اجتماعية وثقافية، نظرا للألفاظ المستعملة والعبارات المتداولة، والتي تدخل ضمن التركيب الشامل للغة الحياة اليومية..

وتستمر الحصة بدفع من مسيرها ومنشطها الذي يسعى لإنجاحها الكامن أساسا في إقناع الجماهير وإيصال الفكرة لأكبر قدر من المتتبعين الذين يؤمنون بالبساطة ويرون في اللغة الفصحى بأنها أكثر تعقيدا وغموضا، مما يجعل الكثير منهم يعزفون عن المتابعة، ولذلك نُلفي المذيع يوجه أسئلة بسيطة بالعامية المفهومة جدا، التي يجنح فيها من حصّة إلى أخرى نحو التبسيط أكثر فأكثر، وقد استطاع مقدم الحصة، رغم ثقافته الواسعة ولغته الفصيحة الراقية، أن يقنع المتتبعين ويستميلهم نظرا لطبيعة الموضوعات التفاعلية التي يختارها من جهة، والتفاهم الكبير والتواصل الحاصل بينه وبينهم، بفضل التمكن من اللغة البسيطة المفهومة والإمكانات الصوتية المتنوعة التي يستخدمها..

فطغيان العامية في هذه الحصة يعود، حسب ما أفادنا به منشط الحصة، لخصائص الخطاب الإعلامي الذي يوجه أساسا لشريحة واسعة من المجتمع، لأنه يواجه منافسة حادة من الوسائل السمعية البصرية والقنوات المرئية الذي تفوقه بخاصيتين، وهما اللون والصورة الجامدة والمتحركة، ولذلك يلجأ المذيعون لاستدراك النقص بما يتاح لهم من الإمكانات التعبيرية، بغض النظر عن طبيعة اللغة المستخدمة ما دامت تفي بالغرض ..

أما البرنامج الثاني الموسوم بـ"زينة الحياة"، وهو برنامج تربوي ترفيهي موجه لفئة الأطفال، فقد كان على عكس البرنامج الأول فيما يتعلق بنسبة استعمال الفصحى والعامية، فقد سجلنا النسبة الأكبر للاستعمال كانت للفصحى، سواء من قبل المنشطة أو الأطفال المشاركين في هذه الحصة، فقد مثلت الفصحى المستخدمة أكثر من ستين بالمائة، بينما لم تتجاوز العامية نسبة أربعين بالمائة، نظرا للتطور الحاصل لوسائل الإعلام المختلفة، وخاصة التلفزيون من خلال الرسوم المتحركة والأغاني الفصيحة، والتي سهلت عملية نقل الرسالة الإعلامية إلى جمهور المتلقين وخاصة الأطفال باللغة الفصحى، التي تجد استجابة أكثر لدى هذه الفئة، فمرحلة الطفولة من أهم المراحل في حياة الفرد، ففي هذه المرحلة تنمو قدراته وتتفتح مواهبه..

وهذا ما لاحظناه في هذه الحصة، حيث وجدنا بعض الأطفال يحاولون إظهار قدراتهم ومعارفهم، ومهاراتهم اللغوية من باب التباهي والافتخار أمام زملائهم، وذلك من خلال محاولة الإتيان بأشياء مغايرة تماما لما يسمعه من الآخرين، فترى الواحد منهم يحاول أن يحكي حكاية مستعملا فيها لغة فصيحة بسيطة خالية من الأخطاء إلى حد كبير، ولكنها جميلة وراقية بالنظر إلى سنِّه ومستواه العقلي والفكري الذي لم ينضج بعد...

والملاحظ كذلك في هذه الحصة، هو حرص المنشطة على التحدث بالفصحى، على عكس منشط الحصة الأولى الذي ظل يركز كلامه باللهجة العامية، والفرق هو الفئة المستهدفة، فقضايا الأطفال وقصصهم التي يرددونها وأغانيهم وأناشيدهم غالبا ما تكون بالفصحى..

ومن خلال الحصتين، سجلنا اعتقادا مسبقا ومواقف خاطئة لبعض الإعلاميين تجاه المستمعين الذين يتواصلون معهم بالعامية، مبررين ذلك الإفراط في استخدامها بضعف مستوى المتلقي في اللغة العربية الفصحى، في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك، وخاصة فئة الأطفال التي أثبتت قدرات عالية في التواصل بالفصحى، وتبدو المشكلة لدى الصحفيين والمنشطين والإعلاميين بشكل عام، الذين لم يبذلوا أيّ جهد في تعويد المتلقين على التواصل بالفصحى ودفعهم للتحدث بها،"ولكي نحقق اتصالا فعالا بين مختلف الأفراد في مختلف الميادين والمجالات، فإنه يجب أن ندرب الأفراد على مهارة الاتصال ومنها فن الحديث"[16]، و لو فعلوا ذلك لاعتاد الناس على التكلم والتواصل باللغة التي ألفوا الاستماع لها، والدليل على ذلك نشرات الأخبار، ونشرات الأحوال الجوية، والأشرطة العلمية والتحقيقات المختلفة، التي لا تُقدّم إلا بالفصحى، ويفهمها كل الجزائريين حتى الأميين ومن ليس لديهم أي مستوى تعليمي..

خاتمة:

تعد اللغة العربية مقوِّماً ثابتاً من مقوّمات الشعب الجزائري، وإحدى ركائز هويته الوطنية، فقد ظلت تشكِّل جزءا من كيانه لا تنفصل عن شخصيته الوطنية الجزائرية المغاربية وانتمائه العربي الإسلامي، فهي لغة الدّين والأمة والوطن، وعبر كل العصور...ولذلك كانت هي اللغة الرسمية للدولة الجزائرية، وقد نصت على ذلك النصوص التشريعية والقوانين المعمول بها، استنادا لما جاء في بيان أول نوفمبر، عشية إعلان الثورة التحريرية المجيدة، الذي أكّد على هذا الخيار، ولكن مجال ترسيخها وترسيمها ظل ضعيفا وبطيئا، وخاصة لدى الجهات الإعلامية، نظرا لعوامل كثيرة أهمها عامل انتشار اللهجة العامية في مختلف المؤسسات التربوية والإعلامية، دون أن يكون لذلك أيّ تأثير سلبي مباشر على جوهر اللغة العربية ونظامها... لأن هذه العامية في

عمومها قريبة من اللغة العربية الفصحى إلى حدّ كبير من حيث النظام اللغوي المتعلق بمختلف الأبنية النحوية والصرفية والاشتقاقية، بالإضافة إلى وجود عناصر مشتركة للعامية الجزائرية في جميع أنحاء الجزائر الشاسعة، ورغم ذلك نجد اختلافا من منطقة إلى أخرى، غير أن هذا الاختلاف لا يؤثر كثيرا في عملية التواصل والاتصال ..

الهامش:

[1] تيقرشة فازية، (2010)، اتجاهات البحث اللغوي في الجزائر من خلال الرسائل الجامعية، أهمية البحوث الجامعية بالعربية وتطبيقاتها،، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ص 157-158.

[2] ابن جني أبو الفتح عثمان، (2008)، الخصائص، دار الكتب المصرية، تح محمد علي النجار، ج1، ط1، 1952، ص33.

[3] يعقوب إميل بديع، (دت) فصول في فقه اللغة العربية، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، ص9.

[4] فكتور الكك، (2001)، اللغة العربية في إيران ماضيا وحاضرا، مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ص 123.

[5] أنيس إبراهيم، (1955)، في اللهجات العربية ، المكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1، ص17.

[6] ولد خليفة محمد العربي، (2009)، أداء العربية في الإعلام المسموع، الإذاعة الوطنية وترقية أداء اللّغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية، الجزائر، ، ص23-33 .

[7] نويوات مختار، (1429-2008)، الصّلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر "المعالم الكبرى"، الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، دار الخلدونية للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص132.

[8] مرتاض عبد الجليل، (دت)، هذه العربية: واقع وآفاق، مكانة اللغة اللغة العربية بين اللغات العالمية، ص447.

[9] سعدي عثمان، (دت)، اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها – مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستقلال وبعده، الفصحى وعامياتها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ص111.

[10] مرتاض عبد الجليل،(دت)، الظاهرة اللّسانية لانتشار الفصحى إلى عاميات، الفصحى وعامياتها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ص252.

[11] فوضيل عبد القادر ، (2007)، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الدفاع عن اللغة العربية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي لبلادنا، أشكال الصمود والمقاومة، المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ، ص50 .51.

[12] بدران إبراهيم، اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين، مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، (دت)،ص350.

[13] م، ن، ص: 357.

[14] عبد القادر فوضيل، دور جمعية العماء المسلمين الجزائريين في الدفاع عن اللغة العربية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي لبلادنا – أشكال الصمود والمقاومة، المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية2007، ص7.

[15] ينظر: مختار نويوات، الصّلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر "المعالم الكبرى"، الفصحى وعامياتها، ص133.

[16] منار إبراهيم ، اللغة العربية ووسائل الاتصال(قراءة في السلبيات والإجابيات)، مجلة اللغة والاتصال، العدد3، مجلة علمية محكمة يصدرها مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، منشورات دار الأديب، الجزائر2007، ص90.